جماليات التناص الخارجي في قصيدة البردة ، للبوصيري

*الدكتور. نوري أحمد محفوظ عبيريد

تقديـــــــم:

التراث العربي الأدبي عظيم أثره باق على صروف الدهر، وليس هذا بغرض تضخيم قيمته الإبداعية بالمغالاة في الاستنباط والتأويل، ولا لإسقاط مفاهيم نقدية دخيلة عليه، بل تأكيد لقيمته العلمية، وتقليص للهوة التي يرى البعض أنها تفصله عن المفاهيم النقدية الحديثة، وتأكيد لأهمية الإفادة من المفاهيم الحديثة في إعادة قراءة تراثنا الأدبي للوصول إلى فهم أفضل لنصوصه والتعمق في جماليات بنيتها.

وقد اخترت من كنوز تراثنا الأدبي ما يتعلق بالمدائح النبوية، وذلك من خلال نص بردة البوصيري، فجاءت هذه الدراسة بعنوان: " جماليات التناص الخارجي في بردة البوصيري "

ويرجع اختيار هذا الموضوع إلى عدة أسباب لعل من أهمها:

1. محاولة تتبع جماليات (التناص) بوصفه مصطلحاً يتقاطع في كثير من النّقاط مع مفاهيـــــم ومصطلحات نقدية عربية قديمة من حيث التّعريف،والمنهج والآلية، وذلك من خلال استنطـــاق نصوصه، وإعادة قراءتها قراءة جديدة في ضوء المفاهيم النقدية الحديثة؛ بغية التعريف بعطاءات الثقافة العربية الإسلامية عند أبنائها أولاً، والعمل على نقلها للآخر ثانياً؛ ففيها أصالتنا وتميزنا الذي على أساسه نخاطب الآخر ونحاوره.
2. رفع الظلم عن أدب عصر الدول المتتابعة الذي نال ظلمًا كبيرًا من قبل معظم المستشرقين وأتباعهم، فبنوا بيننا وبينه جدارًا عازلاً، وأحدثوا عند معظمنا قطيعة معرفية مع تراثه الثر الزاخر المغمور المطمور جلُّه إن لم يكن كله!

حيث أُلقيت عليه التهم جزافاً فاتهم بأنه عصر تخلُّف وركود، وإنه عصر الانحطاط وجمود وانحدار وانهيار وتخلف... وما إلى ذلك من إطلاقات معممة جائرة، تقف حجر عثرة وجدارًا عازلاً بين الطالب وهذا الأدب، ومن ثم لا يجد الطالب أمامه دافعًا على دراسة هذا الأدب وتعلمه، وما من شك في أن هذا كله كان وراءه دوافعلا أرى أن الوقت مناسباً لتتبعها وتفنيدها، إلا أنني أرى أن أدب عصر الدول المتتابعة محتاج إلى من يجمِّل صورته ويبيِّن فوائده وآثاره الطيبة؛فمن يُنقب عن العصر وعن شُعرائه يجد أنه قد حوى بعض الشعراء الجادين المتميزين- شأن أي عصر- إذا تم دراسة أثارهم دراسة جادة ومعمقة فلا شك في أنها ستعطي صورة مشرقة من صور هذا العصر، تزيل

*أستاذ مساعد ـ قسم اللغة العربية ـ كلية اللغات ـ جامعة طرابلس ـ ليبيا

الغموض الذي اكتنفه في أذهان طلاب الأدب وشُداته، وتترك لدى المطلع انطباعاً مغايراً لما هو سائد عنه،وتفتح باباً كبيراً أمام الباحثين والباحثات للتعمق في نتاج أدبي بكرٍ ثرٍّ.

ومن هنا وقعتُ على المدائح النبوية، هذا الفن الشعري الذي ازدهر وحقق وجوداً متميزاً في بيئة المتصوفة أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن الهجري، في عصر الدول والإمارات المتتابعة، فقد كثر شعراء المديح النبوي، وكثرت قصائده ونما وتكاملت في هذا العصر، فكان أبرز فنونه وأرقاها، وأكثرها تأثيراً في الحركة الشعرية وفي مجتمع ذلك الوقت، فقد كان موضوعاً لا يكاد يتخلف عنه شاعر من شعراء تلك العصور وبخاصة العصر المملوكي، إلا أن منهم المُقِلُّ ومنهم المكثرُ، ومنهم من كانوا يُفردون له دواوين كاملة، ويطول بنا الأمر لو عدَّدنا شعراء المديح النبوي على طول العصر المملوكي، غير أن هناك من هؤلاء الشعراء من يستحق منَّا وقفة خاصة، لعمق تأثيره على هذا الفن في العصور التالية، بل حتى هذا اليوم؛ ونعني به شرف الدين البوصيري، وهو محمد بن سعيد بن حمَّاد الصنَّهاجي (نسبة إلى هذه القبيلة البربرية التي على أصله المغربي)، ولد في دلاص، وهي قرية تقع قرب النيل تتبع البهنسا، في نحو سنة 608 هـ، واشتغل كاتباً في بلبيس بمحافظة الشرقية، ثم عاد إلى القاهرة فاحترف قراءة القرآن، ومدح بعض وزراء الدولتين الأيوبية والمملوكية، وبعض ولاة الأقاليم المصرية، وكان كثيراً ما يشكو عازته وفقره، ويهجو موظفي الدواوين،ويذكر مساوئهم ومعايبهم، في أسلوب فكه ظريف، وقد امتدت الحياة به حتى توفي سنة 698هـ على الأرجح.[1]

وللبوصيري قصائده العديدة في المديح النبوي؛ منها ما نظمه قبل توجَّهه للحَجِّ، وأهمها معارضته لكعب بن زهير، ولامِيتُّه في الرد على أهل الكتاب، وقد ختمها بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وبالتعبير عن شوقه لزيارته، وله قصائد في أثناء رحلته للحج وأمام الضريح النبوي، وعلى إثر أداء الفريضة، وبعد عودته إلى مصر نظم أشهر مدائحه، وهما قصيدتان: همزيَّتُه التي سماها " أم القرى في مدح خير الورى" و بردته التي دعاها "الكواكب الدُّرية في مدح خير البرية".[2]

وتبقى لبردة البوصيري مركز الريادة من حيث الشهرة والتداول التي ذاعت شهرتها في الآفاق، وتميّزت بعاطفتها الصادقة، وروعة معانيها، وجمال تصويرها، ودقّة ألفاظها، وحسن سبكها، وبراعة نظمها؛ فكانت بحقّ مدرسة لشعراء المدائح النبوية من بعده، ومثالاً يحتذيه الشعراء ؛ فظهرت قصائد عديدة في فنّ المدائح النبوية، أمتعت عقل ووجدان ملايين المسلمين على

[1] ـ انظر ترجمة البوصيري في: فوات الوفيات، للكتبي، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، د ط، 362/3.

[2] ـ انظر: المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي، محمود سالم محمد، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ودار الفكر، دمشق، سورية، ط1، 1996م، ص65.

مرّ العصور، ولكنها كانت دائمًا تشهد بريادة الإمام البوصيري وأستاذيته لهذا الفنّ بلا منازع، وصدق أمير الشعراء أحمد شوقي القائل:

المادحون وأربابُ الهوى تبعٌ لصاحب البردة الفيحاء ذي القدم. [1]

وقد كان لذيوع البردة في أوساط المجتمع الإسلامي وانتشارها بين أفراده على نطاق واسع، وإقبالهم على حفظها وإنشادها ودراستها، الأثرُ البالغ في الحقل الأدبي واللغوي، مما ساعد على إثراء اللغة وتطويع لغة الخطاب الأدبي، فأخذت البردة بذلك مكانة متميزة في تاريخ الأدب العربي، وطبعت عدة مرات في البلاد الإسلامية وفي بعض البلاد الأجنبية، هذا إلى جانب دراسات أخرى تناولت تأثرَها وتأثيرَها بالتحليل والموازنة لإظهار الخصائص والمميزات والوقوف على الجوانب الموضوعية والفنية،كما لا يزال الاهتمام بها قائماً ومتنامياً في نفوس عموم أفراد الأمة، تلاوة وإنشادا، تيمناً وتبركاً تقديراً و تعظيماً [2].

ولا شك في أن لهذه الأعمال العلمية والأدبية الكثيرة المتصلة بالبردة مفعولَها الكبير في إثراء جملة من المعارف في هذه الحقول اللغوية والنحوية والصرفية والبلاغية والأدبية والتاريخية، ؛ إلا أن الباحث لاحظ قلة الدراسات التي تنصب على دراسة نص البردة من خلال استنطاق نصوصها، واستقراء المرجعيات التناصية المباشرة وغير المباشرة التي شكلت بناء البردة والوقوف على جماليتها، وهذا ما ستحاول هذه الدراسة المتواضعة قراءته والكشف عنه،فتبيان المعرفة الخلفية ضرورية لفهم النص الشعري قصد خلق انسجامه واتساقه، لأنه بمثابة آلية إستراتيجية في تحليل النص الأدبي وتفكيكه؛ فبناء النص الأدبي يتأسس داخل فضاء فني يسمح له بالانفتاح على نصوص متنوعة يحكمها الترابط والتداخل والتفاعل، مما يؤكد أن النص الأدبي غير قائم بذاته، وأنه لا يعدو أن يكون إشارة فنية مفتوحة على نصوص سابقة وأخرى لاحقة. [3]

وسأدير الحديث في هذا الموضوع على نقطتين:

النقطة الأولى جاءت في شكل مهاد نظري تتناول مفهوم التناص في الخطاب النقدي، وسبر غور هذا المفهوم عند نقادنا العرب القدامى، بينما جعلت النقطة الثانية دراسة تطبيقية لجماليات التناص الخارجي من خلال نص بردة البوصيري.

ولا أزعم أن هذه المساهمة المتواضعة يمكن أن تفي حق البردة التي يتطلب الوقوف على جماليات التناص فيها دراسة مستفيضة، نظرا لما تزخر به من غنى في الشكل يعكس تعدد مصادر التجربة،

---

[1] ـ نهج البردة، أحمد شوقي، شرح سليم البشري، مكتبة الآداب، د.ط، القاهرة، 1999م، ص98.

[2] ـ انظر عن أثر البردة: المدائح النبوية في الأدب العربي، زكي مبارك، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط2، الشركة الدولية للطباعة، القاهرة، مصر،2003م، ص 215 ـ 226.

[3] ـ نظر: التناص في الخطاب النقدي والبلاغي، د.عبد القادر بقشي، دار افريقيا الشرق، المغرب، 2007م ص9.

فإذا حقّق هذا البحث المتواضع هدفه في الكشف عن الملامح الإيجابية في تراثنا الشعري على ضوء مستجدّات العصر ومناهجه النقدية الجديدة، ولفت انتباه الدارسين والنقاد إلى دراسة تراثنا دراسة متعمقة تنظر في المضامين والأسرار، وتستخرج ما فيه من المكنونات والجواهر؛ وما أكثرها، وما أحوجنا إليها؛ أقول إذا حقق هذا فقد بلغ غايته.

مفهوم التناص:

يرى ليتش أن "النصّ ليس ذاتاً مستقلة، أو مادة موحدة، ولكنه سلسلة من العلاقات مع نصوص أخرى... إن شجرة نسب النصّ شبكة غير تامة من المقتطفات المستعارة شعورياً أو لا شعورياً ".[1]

من هذا التعريف نستنتج أن النصّ هو خلاصة لما لا يحصى من النصوص، فلا حدود للنصّ، ولا حدود بين نصّ وآخر، وإنما يأخذ النصّ من نصوص أخرى، ويعطيها في آن، مما يعني توالد النصّ من نصوص أخرى، وتداخل النصّ مع نصوص أخرى، وهذا ما يعنيه التناص الذي أساسه التفاعل والتشارك بين النصوص، وهذا يقتضي الحفظ والمعرفة السابقة بالنصوص السابقة، وتمثيلها بنص موحد يجمع بين الحاضر والغائب وينسج بطريقة تتناسب وكل قارئ مبدع.[2]

ويعد التناص من المفاهيم النقدية التي اختلفت تصورات الدارسين حول تعريفه وضبط فعاليته النقدية؛ إذ أدرجه بعضهم ضمن الشعرية التكوينية، فيما تناوله بعضهم الآخر في إطار جمالية التلقي، وعدَّه آخرون من مكونات لسانيات الخطاب التي تتحكم في نصية النص،[3] ورغم اختلاف هذه المقاربات فإن مفهوم التناص ظل محافظاً على وظيفته النقدية.

و(التّناصّ) تشكيل نصّ جديد من نصوص سابقة أو معاصرة، بحيث يغدو النّص المتناصّ خلاصةً لعدد من النصوص التي تمحي الحدود بينها، وأعيدت صياغتها بشكل جديد، بحيث لم يبق من النصوص السابقة سوى مادتها. وغاب (الأصل) فلا يدركه إلا ذوو الخبرة والمران.

وكانت البلغارية (جوليا كريستيفا) أول من ابتدع هذا المصطلح في دراساتها النقدية بين سنتي 1966و1967م، التي رأت أن " كل نصّ هو عبارة عن فسيفساء من الاقتباسات، وكل نصّ هو تشرّب وتحويل لنصوص أخرى "،[4] مع أنها أشارت إلى استعارتها له من باختين إذ اعترفت بفضله في التنظير النقدي له في إطار الشكلانية الروسية، بينما كان بارت وكريستيفا يستعملان هذا المصطلح في سياق نظري عام متصل بالكتابة النصية.

---

[1] ـ الخطيئة والتكفير، عبد الله الغدامي، النادي الأدبي الثقافي، جدة،ط1، 1985م، ص321.

[2] ـ انظر: التناص الشعري،قراءة أخرى لقضية السرقات، مصطفى السعدني،منشأة المعارف، الاسكندرية، د. ط، 1991م،ص8 .

[3] ـ انظر: مفهوم التناص في الخطاب النقدي الجديد، أنجينو مارك، ترجمة وتقديم، أحمد المديني، عيون المقالات، دار الشؤون الثقافية العامة، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1989م، ص110.

[4] ـ علم النص، جوليا كريستيفا، ترجمة: مزيد الزاهي، دار تويفال، الدار البيضاء، ط1، 1991م.

ثم توالت الجهود التي فعلت هذا الحقل عند الناقد الفرنسي (رولان بارت) الذي أثرى هذا المصطلح في دراسات كانت إرهاصات بتبلوره في الثقافة الغربية في عام 1973م ولاسيما في كتابه (لذة النص)، وتعد دراساته إحدى أبرز علامات تبلوره في الثقافة الغربية. وحاول الفرنسي (جيرار جينيت) أن يحول هذا المصطلح إلى منهج بعد أن جمع أطرافه وفصل القـــــول فيه، وذلك باعتماده على جهود سابقيـــــه في كتابه (أطراس)، وهو الكتاب الذي نقل فيه موضوع الشعرية، وقام فيه بمحاولة لجمع شظاياه ونثاره.

إن هذا الاختلاف والتعدد يمكن أن يقرأ في الجانب الإيجابي الحسن إذ يوضع في جانب من (الثراء غير النهائي) الذي صاحب المصطلح، ويبدو ذلك أمراً طبيعياً إذا عرفنا أن من أبرز ملامح هذا المصطلح في ذاته اللانهائية وعدم البراءة.

وربما يتفق هذا العرض مع ما ألمح إليه (مارك أنجينو) أحد المنظرين لمصطلح التناصية من أن المسألة ليست في معرفة ماذا نعني بالتناصية لكن : فيم تستخدم ؟ لأي شئ يصلح التناص أو يستعمل، وهل جدواها مرتبطة باللحظة التاريخية. إنه أداة نقدية تسمح لنا بإثارة إشكالية نقدية وفكرية أكثر منه مفهوماً محدداً بدقة. [1]

مفهوم التناص في النقد العربي القديم:

إن التناص كغيره من الاتجاهات التي أسس لها الغرب المصطلح والمفهوم والمنهج والرؤية وجد جذوراً له فترية النقد العربي القديم، ومن الممكن القول: إن ثمة أفكار تتصل به كانت موضع عناية واهتمام واضحين؛ بيد أن الأمر لم ينقلب إلى الإطار النظري الواضح [2].

وممّا يؤيد هذه المقولة ما نراه من عناية نقادنا العرب القدماء لمفهوم (التّناصّ) أو (التداخل النّصّي)، فقد أولوا عنايتهم بهذين المفهومين وعالجوهما،لا بتسميتهما المعاصرة، وإنما بتسميات أخرى من مثل: الموازنة، والمفاضلة، والوساطة، والتضمين، والاقتباس، والاستشهاد، والسرقات، والمعارضات، والنقائض... الخ،وهذا لا يقلل من قيمة تراثنا الشعري والنقدي، وإنما بالعكس، يعطيه دفعة جديدة من الحياة، عندما يفسره على ضوء مفهومات نقدية معاصرة، فيمنحه الخلود، عندما يجد فيه كلُّ عصر ما يبتغيه، على ضوء مفهوماته المستجدّة.

إن ما انتهى إليه العلامة عبد الرحمن بن خلدون،ومن سبقه ،من أن الشاعر المبتدئ لكي يصل إلى درجة الإبداع ،عليه أن يحفظ أشعار العرب ويرويها ،ويتعرف على مناقبهم وأمثالهم وجميع

[1] ـ انظر: التناصية بحث في انبثاق حقل مفهومي وانتشاره، مارك أنجينو، ترجمة محمد خير البقاعي، مجلة علامات،ج18،مارس 1996م، ص 124- 156).

[2] ـ انظر: التناص في الشعر العربي الحديث ـ البرغوثي نموذجاً، حصة البادي، دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع والإعلان، الأردن، 2008م، ص21.

ثقافتهم، ثم يتجرد من ذلك كله،ويحذو حذوه في التأليف كما يحذو البناء على القالب والنساج على المنوال؛ [1]إنه لدليل قاطع على تبلور(نظرية التناص) في أذهان هؤلاء،وقد عرفوا ما لها من شأن في تجديد الإنتاج النصي، وتوليده عن طريق الاتصال مع تراثهم أو مخزونهم الثقافي،وتضمين ما يمكن تضمينه،والتأثر بما يجب التأثر به،حفاظا على النهج،وإبقاء لعناصر الهوية العربية البدوية،وصيانتها من الاندثار،هذا من جهة، ومن ناحية أخرى كانوا أكثر وعيا بأن وظيفة الخطاب التواصلية، تستند إلى وظيفة نصية كامنة في علامات النص وشفراته؛ فإذا ما اكتسب المبدع أدواته من النصوص السابقة،نسج على منوالها ونحا نحوها ،وفي الأخير فإنه حتما سيوصل الخطاب المبدع عبر علامات النص السابق،عن طريق النص الجديد.

<u>أنواع التناص:</u>

تندرج آليات التناص المختلفة ضمن نوعين من أنواع التناص،هما: التناص الظاهر أو الشعوري، والتناص غير الظاهر أو اللاشعوري وهناك من يطلق عليه تناص الخفاء، وقد يكون التناص خارجياً مع نصوص غريبة عنه، من ثقافته أو الثقافات الأخرى المعاصرة، أو القديمة، أو يكون التناص داخلياً مع نصوص الكاتب أو الشاعر نفسه.

فالتناصّ الداخلي: هو حوار يتجلى في (توالد) النصّ و (تناسله)، وتناقش فيه: الكلمات المفاتيح أو المحاور، والجمل المنطلقات والأهداف، والحوارات المباشرة وغير المباشرة. فهو إعادة إنتاج سابق، في حدود من الحرية. النص الغائب. [2]

وأما التناص الخارجي: فـ " يتمثل بالإرث الثقافي الذي يفد إلى المبدع من كل مكان، وفي كل زمان، غير عابيء بالحدود المكانية و الزمانية، وعليه أن يتكيف مع هذا الإرث منتخلاً منه ما يحتاج إليه، ومكوناً صوراً مستمدة منه لكنها مغايرة له ". [3]

وعلى ضوء هذين التعريفين لنوعي التناص يمكن القول: إن التفاعل في التناص الداخلي يتم مع نصوص المنشيء ذاته لغة وأسلوباً ونوعاً، سواء أكانت قديمة أم محدثة جديدة، وأما (التّناصّ) الخارجي فهو حوار بين نصّ ونصوص أخرى متعددة المصادر والوظائف والمستويات، واستشفاف التناصّ الخارجي في نصّ عملية ليست بالسهلة، وعلى الخصوص إذا كان النصّ مبنياً بصفة حاذقة. ولكنها مهما تسترت واختفت فإنها لا يمكن أن تخفى على القارئ المطلع الذي بإمكانه أن يعيدها إلى مصادرها. وإذن فإن هناك نصّاً مركزياً يتجلى في النصوص السابقة، ونصوصاً فرعية تتمثل في النصوص اللاحقة.

---

[1] ـ انظر: مقدمة ابن خلدون،لابن خلدون،تحقيق درويش الجويدي،المكتبة العصرية، بيروت، 1996م،ص57 .

[2] ـ تجليات التناص في الشعر العربي دراسة د. محمد عزام، مجلة التراث العربي، دمشق 2001 م.

[3] ـ نظرية التناص ـ صك جديد لعملة قديمة ـ، د. حسين جمعة، مجلة مجمع اللغة العربية، المجلد 57 الجزء . 2) ص 346.

وسأقتصر في هذه الدراسة على القسم الخارجي من قسمي التناص، وسأقف عند بعض النصوص للتدليل على مواطن التناص الخارجي، فهدف الدراسة ليس تتبع كل النصوص؛ وإنما تقديم النماذج التطبيقية لمفهوم هذا المصطلح، التي اقتضت في مجملها تقسيمها عدة مباحث اندرجت تحتها تفريعات جزئية.

المبحث الأول.

التناص الديني:

يمثل الخطاب الديني مرجعية ثقافية واجتماعية وفكرية للشاعر؛ فمن أرضيته ينطلق الشاعر للتعبير عن رؤيته للعالم، باعتباره –أي الخطاب الديني – محور العلوم والمعارف، ومعيناً لا ينضب يقصده الشاعر لينهل من نميره العذب، ويستدع ما حوت منابعه من قصص وإشارات، ورموز، لتذوب في نص الشاعر، فتكسبه العلو والرفعة، وتمنحه الثقة والطمأنينة المطلوبة، وتؤكد التصاقه بميراثه الديني، وتدعوه إلى الفخر لاستشهاده بنصوصه.

يُعد التناص الديني في شعر المدائح النبوية من أنجح الوسائط الثرية والمؤثرة، التي تُسهم في إظهار قوة النص ومتانته، وذلك لطبيعة النص الديني وما يملكه من قدسية، ومن طبيعة اهتمام البشر بحفظ هذا النص الديني وتذكره، ومن ثم يسير السياق الشعري بحماية ومؤزرة السياق القرآني.

وقد مثَّل التناص الديني منبعاً أساسياً في بناء نص البردة؛ فجل النصوص الداخلة في تكوينه اعتمدت عليه، وينقسم التناص الديني فيها إلى قسمين: القرآن الكريم،والحديث النبوي الشريف، وسأقف عند بعض النماذج:

أولاً .:التناص مع القرآن الكريم :

يتبوأ النص القرآني المقام الأول بين المصادر المشاركة في تشكيل بنية الخطاب الشعري، حيث يعتمد التناص على آيات القرآن الكريم والسياقات الدينية المتعلقة بها بدرجة تلفت الانتباه، وتكشف عن حقيقة سيطرة الصياغة القرآنية بأنماطها المختلفة على حقل التناص والظاهرة الأسلوبية بوجه عام.

وقد "نبه أئمة البيان وعلماء البلاغة في مؤلفاتهم إلى أهمية حفظ القرآن الكريم والمداومة على استخدام ألفاظه وعباراته، وممارسة حلها أو نثرها فيما يكتبون لتكتسب أساليبهم رونقاً وتعلوها طلاوة ".[1]

شكل القرآن الكريم مادة غنية للشعر والشعراء في العصر المملوكي، ولاسيما المديح النبوي والرثاء، حيث أضحى مرجعاً فكرياً لتداخله مع النصوص الشعرية في علاقات تناصية

[1] ـ الأدب في العصر المملوكي، د: محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط1، 1996م، 81/3.

كثيرة، على اعتبار أنه محور العلوم والمعارف، واستقى منه شعراء ذلك العصر ما يُقوي شعرهم ويدعمه في كثير من المناسبات العامة والخاصة، حيث كان القرآن الكريم رمزاً للمثل والقدوة والعظة في بعض الأحيان، والنصوص القرآنية قادرة – بلا شك - لإلهام الشاعر لما تحويه من معان متجددة، يعد توظيفها في الشعر من أنجح الوسائل، وذلك لخاصة ذهنية في هذه النصوص تلتقي وطبيعة الشعر نفسه، وهي أنها مما ينزع الذهن البشري لحفظه ومداومة تذكره، فلا تكاد ذاكرة الإنسان في كل العصور تحرص على الإمساك بنص إلا إذا كان دينياً أو شعرياً.[1]

ويبدو أن التناص مع آيات القرآن الكريم قد أخذ مجالاً واسعاً في شعر البوصيري دلّ علي ثقافة شمولية عامة، وظّفها الشاعر واستلهمها في تطلعاته ومقاصده وأفكاره الشعرية وتوزعت ظواهر التناص مع القرآن عند البوصيري في بردته علي عدّة نقاط وتشمل عدّة محاور؛ لكل منها دوره، وأهميته في إنتاج الدلالة وتوجيهها وفق زاوية، أو رؤية معينة، وقد تأخذ هذه الظواهر أشكالاً مختلفة، بحيث تتضافر، وتتفاعل المحاور في النص مع هذه الظواهر، فتعطي التناص قيمة دلالية خاصة، تتّم علي إدراك البوصيري واستشرافه لموروثه الديني وفي مقدمته القرآن الكريم.

ويتجلى هذا الأثر القرآني في مواطن كثيرة من البردة، وليس من غرضنا أن ندرس هذا الجانب من أسلوب الشاعر في بردته دراسة مستفيضة ، تهدف إلى استقراء هذه الخاصية فيها وإنما قصارى ما يرمي إليه القصد من ذلك ، توجيه النظر إلى هذه الناحية في معجم القصيدة.[2]

فقول البوصيري: وَلا تَزَودَّتُ قَبْلَ المَوتِ نَافِلَةً ولَم أُصلِّ سوى فَرضٍ ولَم أصُم

يتناص البيت مع **قوله تعالى(وَمَا تَفعَلُوا مِن خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ واتقُونِ يَاأولِي الألبَابِ)**سورةالبقرة،الآية: 1.

تتم إشارات التداخل من خلال توظيف نص البردة للفظ التزود الواردة في الآية، فقوله: **وَلا تَزَودَّتُ قَبْلَ المَوتِ نَافِلَةً** إشارة إلى**(وتَزَوَّدوا فإنَ خَيْر الزَادِ التَّقْوى)**،حمل مدلول التزود في الآية معنيين: التزود للسفر في الدنيا والتزود للسفر من الدنيا؛ لهذا ارتبط الأول بالمعنى الحقيقي المرتبط بالزاد المتمثل في الطعام وعدة السفر؛ بينما ارتبط السفر الثاني بالمعنى المجازي المرتبط بالتقوى المتمثلة في العبادة، والطاعات التي أمر بها الله واجتناب ما نهى عنه، وحمل التزود في نص البردة معنى واحداً يتمثل في السفر من الدنيا إلى الآخرة؛ لارتباطه بالموت، والاستعداد بعمل العبادات، والطاعات في قوله: **وَلا تَزَودَّتُ قَبْلَ المَوتِ ... البيت.**

ومن هنا نستنتج أن العلاقة بين التزود في السفرين عملية تتميم، وتكميل، وأن الدنيا مزرعةُ للآخرة، وعلى الإنسان أن يتزود بكل ما يُجنبه غضب الله ومن ثم النار، وظف نص البردة لفظ التزود

[1] - إنتاج الدلالة - قراءة في الشعر والقصص والمسرح - د: صلاح فضل، هيئة قصور الثقافة، مصر، ط1، 1993، ص41.

[2] - اعتمت في إثبات نصوص البردة على ديوان البوصيري، شرح أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2001م.

بصيغة الماضي المنفي في قوله: ولا تزودتُ، لدلالة على الانقضاء، والمضي والانتهاء، خلافاً للآية التي ورد فيه التزود بصيغة الأمر في قوله تعالى:**(وتَزَوَّدوا)**ثم أُتبع بـ **(فإنَ خَيْر الزَادِ التَّقْوى)**، لتأكيد الأمر بالتزود.[1] وقد ارتبط الأمر في الآية بالجماعة خلافاً لنص البردة الذي ظهرت فيه الأنا النادمة على ما فرطت في حياتها الماضية.

وقوله:دَعا إلى اللّهِ فالمُستمسِكون به مُستَمسِكون بحبل غيرَ مُنفَصِم

يتناص مع قوله تعالى: **(لا إكرَاهَ في الدِّين قَد تَبَيَّنَ الرُّشدُ من الغَيِّ فمن يَكفُر بالطَاغُوتِ ويُؤمِن باللّه فَقد استَمسَك بالعُروةِ الوثْقَى لا انفِصَامَ لَهَا واللّهُ سَميعٌ عَليمٌ)** سورة البقرة الآية 256.

تظهر إشارات التناص في نص البردة من خلال توظيفه لمضمون الآية بالاعتماد على عدة ألفاظ.

فالمستمسكون، مستمسكون إشارة إلى **(استمسك)**

بحبـــل ←(بالعروة الوثقى)غَيرَ مُنفَصِم←(لا انفصام لها)

" البردة " الآية" البردة " الآية

تشير الآية إلى مبدأ عظيم يتمثل في عدم إكراه الناس على إتباع دين الإسلام، وحمل لفظ الإكراه دلالة القسر والإرغام؛ لذا جاء النفي متضمناً معنى النهى؛[2]فاللّه جل جلاله قادر على جعل الناس كلهم على دينه سواء بالإكراه أم بدونه، ولكن إرادة اللّه سبحانه وتعالى شاءت أن يكون الإيمان بدين الإسلام مبني على القناعة والاختيار لا الإكراه؛ لأن الإكراه يؤدي إلى النفاق في إظهار الإيمان، واللّه سبحانه وتعالى يريد أن يكون الإيمان نابعاً من قلوب الناس وباختيارهم له، ولهذا قال: **(قد تبين الرشد من الغي)**،أي قد ظهر الرشد من الغي.

فالرشد يقابل الغي، وتحمل كلا اللفظتين دلالات كثيرة:

فالرشد=الإيمان ←الهدى وسداد الرأي والغي = الكفر←الظلال والسفه.

ثم جاء الفعلان: يكفر ويؤمن على وجه المقابلة للدلالة على ما سبق توضيحه، فليس بعد الظهور والتبين إلا الكفر بالطاغوت،[3]وليس بعد الكفر بالطاغوت إلا الإيمان باللّه؛ لذلك شبهت الآية المؤمن في ثباته على الإيمان بالمستمسك بالعروة الوثقى المحكمة الشدِّ، فأتمت عبارة **(لا انفصام لها)** المعنى، فكما أن المؤمن ثابت بالإيمان سالم في الدنيا والآخرة لاستمساكه بحبل اللّه؛ أي دينه كذلك فمن تمسك بعروة حبل متين أمن السقوط والوقوع، ومن هنا شبهت الآية المعنوي بالمحسوس؛لتقريب الصورة إلى أذهان الناس.

---

[1]. انظر: تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ط4، 1984م، 2/ 236.

[2]. انظر تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: 26/3.

[3]. انظر: م،ن، ، 28/3.

يشير نص البردة في : دعا إلى الله ..، إلى دعا الرسول صلى الله عليه وسلم الناس إلى دين الله عز وجل وقد قام دعاؤه على أساس بينه الله تعالى في قولـــــــــه: (**ادْعُ إلى سَبِيل رَبِّك بالحِكْمَةِ والمَوعِظَةِ الحَسَنَةِ وجَادِلْهُم بالتي هي أحْسَنُ إنَّ رَبَّكَ هو أَعلمُ بِمَن ضلَّ عَن سَبيلهِ وهُو أَعلَمُ بالمُهْتَدين**﴾،وهذا يوافق قوله تعالى: ﴿**لا إكرَاهَ في الدِّين قَد تَبَيَّنَ الرُّشدُ من الغَيِّ .**﴾فكلا الأمرين سكت عنهما نص البردة واكتفى بقوله:

دعا إلى اللهِ فالمُستَمسِكون به مُستَمسِكون بحبل غيرَ مُنفَصِم

إلا أن: دعا إلى الله ...، تثير في ذهن المتلقي تساؤل عن الكيفية التي دعا بها النبي صلى الله عليه وسلم إلى دين الله تعالى ومن ثم فإن المتلقي يكمل حلقة التوصل حين يستحضر النصين السابقين، ومن هنا نستطيع القول: إن نص البردة عمد إلى الاختصار، والتكثيف، وارتبط قوله: فالمستمسكون به ...، بالرسول صلى الله عليه وسلم، ويريد دين الله سبحانه وتعالى، فالاستمساك بالرسول صلى الله عليه وسلم جزء يكمل الاستمساك بدين الله تعالى؛ ولأن الرسول صلى الله عليه وسلم تُرجى شفاعته، ولكون طاعته اقترنت بطاعة الله؛ومن هنا فضل البوصيري استخدام المستمسكون، بدلالة الاسمية لإضفاء طابع الثبات والاستقرار، فالمؤمن ثابت التمسك بالله والرسول صلى الله عليه وسلم في كل زمان ومكان، ومن ثم وظَّف نص البردة التشبيه الوارد في الآية بالمستمسكين بالله والرسول كالمستمسكين بحبل متين فكلاهما ضمن النجاة وأمن السقوط.

وقوله: فَاقَ النَّبِيينَ في خَلقٍ وفي خُلُقٍ ولَـمْ يُدَانُوه في عِلْمٍ ولا كَـرَمٍ
أكَــرِم بخَـلْـقٍ نَبِـيٍّ زَانَـه خُلُـقٌ بالحُسنِ مُشتَمِلٍ بَالبِشْرِ مُتَّسِم

إن هذه الصورة للرسول صلى الله عليه وسلم تحفر في الوجدان الجمعي، كما أنها تتفق مع بُنى البطولة العالمية ووظائفها ،وهي بُنىً ترفع البطل من المألوف إلى المعجز من الميلاد إلى الموت، كما أنها ترتبط بالشعوب وتنعكس عليها رغبات الجماعة لما تؤديه من دور دفاعي عن الذات في وجه الواقع المأزوم.[1]

إن هذين البيتين يتناصان مع قوله تعالى: ﴿**وإنَّك لَعَلَى خُلُقٍ عَظيم** ﴾سورة القلم، الآية: 80، تتحدث الآية عن خُلق النبي صلى الله عليه وسلم، وتضمنت تأكيداً من الله سبحانه وتعالى على خُلق نبيه، ونُعت الخُلُق بالعظيم فحمل عدة دلالات، جاءت مكملة لحسن الخليقة، والصورة التي أوجدها سبحانه وتعالى بها ، وهذا الأمر يُفهم ضمناً؛لأنه صلى الله عليه وسلم مُعدٌّ لحمل رسالة سماوية من الله لكل البشرية ، وخاتم للرسل والأنبياء عليهم السلام استوجب ذلك أن يكون مهيئاً بكل الأسباب التي تُمكنه من حمل الرسالة وتأدية الأمانة ، ومن هذه الأسباب حسن الخَليقة والخُلق...الخ.

يتناص نص البردة مع الآية في بيتين معتمداً على تفصيل ما أجملت الآية فقوله:

[1] ـ انظر: قطاع البطولة والنرجسية في الذات العربية، علي زيعور، بيروت، دار الطليعة، 1982م، ص93.

فَاقَ النَّبِيينَ في خَلقٍ وفي خُلقٍ إشارة إلى ← **لعلى خُلق عظيم)**

أكرمْ بخَلقِ نَبيٍّ زَانَهُ خُلُقٌ إشارة إلى←**لعلى خُلق عظيم)** السجية والطبع على الترتيب؛ ليبين أن كمال الخُلق وجماله مُكمل لجمال الخَلق،ومن هنا فإن الجمال الخَلقي وحده لا يكفي،ولا يُمدح به إذا لم يقترن بالأخلاق؛ لذلك قال: زَانَه خُلُقٌ ... البيت، وفي قوله: فَاقَ النّبيِّين في خَلق وفي خُلقٍ ... البيت، نُكّرت لفظتي←(خَلق ، خُلُق) مما أفاد التعظيم لشأن النبي صلى الله عليه وسلم.

وقوله : يا نفس لاَ تَقْنَطِي مِن زَلَّةٍ عَظُمَتْ إنَّ الكَبَائِرَ في الغُفْرانِ كَالَّلمَمِ

لَعَلَّ رحمَةَ ربِّي حِيْنَ يقْسمُها تَأتي عَلَى حَسَبِ العِصْيَانِ في القَسمِ

يتناص مع عدد من الآيات سنقف على اثنتين منهما :

أولا ـ قوله تعالى: قلْيَا عبَادِي الذينَ أسْرَفُوا عَلَى أنفُسِهِم لا تَقْنَطُوا من رَحْمَةِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَميعاً إنهُ هُو الغَفُورُ الرَّحيمُ) سورة الزمر، الآية: 53.

تبدأ الآية بنداء العباد في قوله: **﴿ قلْ يَاعبَادِي ﴾**،الدال على التحنن و التلطف بهم،وفي إضافة الياء الدالة على الله سبحانه وتعالى تحقيقاً للأمن وبعد أمنا لعذاب وتشريفاً لهؤلاء العباد المؤمنين.

وقال: **أسْرَفُوا)**← بصيغة الماضي بمعنى ارتكبوا الذنب في الماضي وانتهى.

وقال: **لا تَقْنَطُوا)**← بصيغة المضارع بمعنى لا تيئسوا من رحمة الله ومغفرته الآن وفي المستقبل،وجاء الفعل **يَغفِرُ)** لدلالة على الاستمرار لإفادة أن الله دائم المغفرة.

وفي قوله: **(لا تَقْنَطُوا من رَحْمَةِ اللّهِ﴾**أضيفت الرحمة إلى الله، ولم يقل لا تقنطوا من رحمتي إشعاراً بعظم الرحمة لعظم الله سبحانه وتعالى، وما دام النهي عن القنوط أصبح على العبد أن يرجو ويأمل في رحمته.

وجاء قوله:**(إنَّ اللّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَميعاً إنهُ هُو الغَفُورُ الرَّحيمُ ﴾**محملاً بدلالات التأكيد والزيادة والكثرة، لإفادة تأكيد حصول المغفرة والرحمة، وأفاد قوله:**(إنهُ هُو الغَفُورُ الرَّحيمُ ﴾**معنى الحصر فلا غفور ولا رحيم إلا هو سبحانه وتعالى، وذلك غاية الكمال في وصفه سبحانه وتعالى بالغفران والرحمة.

عمل نص البردة دور الممتص لنص الآية من خلال تمثله لبعض الألفاظ والمضامين؛ فقوله: يا نفس يشير إلى **(قلْ يَاعبَادِي الذينَ أسْرَفُوا عَلَى أنفُسِهِم﴾**

(لا تقنطي النهي يشير إلى **لا تَقْنَطُوا﴾**النهي

أفاد الإفراد أفاد الجمع

إن الكبائر في الغفران كاللَّم يشير إلى **(إنَّا للّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَميعاً إنهُ هُو الغَفُورُ الرَّحيمُ﴾**

ينادي نص البردة النفس نداءً من العقل إلى النفس من القوة إلى الضعف، وفي الآية ينادي الله سبحانه وتعالى نداءً من الخالق إلى المخلوق من القوي إلى الضعيف، والشاعر في نص البردة ينهى النفس عن القنوط من زلة عظمت، وأمور فرطت من خلالها في الدين ويرجو في قوله لعل رحمة ربي ...، رحمة الله سبحانه وتعالى، وقال: ربي، ليشعر بربوبية الله وعبوديته أمامه ومن ثم فهو على يقين بحصول الرحمة والمغفرة من الله سبحانه وتعالى؛ لذلك لم ينه النفس عن القنوط من رحمة الله؛ بينما ينهى الله جل جلاله عباده من القنوط من رحمته؛ لأنه كتب على نفسه الرحمة.

ثانياً ـقوله تعالى:﴿الذينَ يَجتَنبونَ كَبَائِرَ الإثمِ والفَواحِشَ إلا اللَّمَمَ إنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ المَغْفِرةِ﴾

سورة النجم، الآية:32.

يتم التداخل من خلال توظيف بعض الألفاظ والمضامين في نص البردة فقوله:زَلَّةٍ عظمت + إن الكبائر إشارة إلى(**كَبَائِرَ الإثمِ﴾** كاللمم إشارة إلى(**إلا اللَّمَمَ﴾**

في الغفران إشارة إلى(**إنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ المَغْفِرةِ ﴾**جاء الاجتناب في الآية بصيغة المضارع←**(يجتنبون﴾**الدال على الاستمرار، والتجدد ليبين دأبهم واستمرارهم على الاجتناب.

جمعت الآية العديد من الألفاظ الدالة على الذنوب وبتفاوت:

↖ الكبائـر ←عموم

↖ الإثـــم ←خصوص

الذنوب← الفواحش ←عموم

↙ اللمم← خصوص

وأضيف الإثم إلى الكبائر ولم يضف إلى الفواحش؛ لأن الفواحش ظاهرة في معناها [1]خلافاً للكبائر التي تحمل معان دلالات عدة، وأفادت الإضافة نوعاً من التخصيص، وعليه فإن: الكبائر تشير إلى مقدار السيئة وعظمها، والفواحش تشير إلى قبح صورة السيئة المصدر. [2]

وحمل الاستثناء في قوله تعالى:(**إلا اللَّمَمَ﴾** دلالة الاستدراك وأفاد فائدتين: عامة تتمثل في عدم معاملة مرتكب اللمم معاملة مرتكب الكبيرة، وخاصة تتمثل في أنه رحمة من الله بالمسلمين الذين يرتكبونه، [3] والاستدراك بمنزلة البشارة لهم لعلم الله بنقصان عباده وليس رخصة لهم في إتيان اللمم، [4] ويتضمن قوله تعالى: **(إنّ رَبَّكَ وَاسِعُ المَغْفِرةِ ﴾**تعليل لاستثناء اللمم من اجتناب كبائر الاثم

[1] ـ تفسير الرازي، لفخر الدين الرازي، دار الفكر، ط1، 1981م، 8/15.

[2] ـ م، ن، 9/15.

[3] ـ تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور، 121/27.

[4] ـ انظر: م،ن، 122/27.

والفواحش، [1]وفي إضافة ضمير الخطاب الدال على النبي صلى الله عليه وسلم إلى (رب) في قوله:﴿**إِنَّ رَبَّكَ**﴾دون واو الجماعة إشارة إلى أن هذه العناية بالمحسنين حصلت بفضل بركة النبي صلى الله عليه وسلم لهذه الأمة، [2]وتظهر المفارقة في أن نص البردة يجعل الكبائر في المغفرة بمنزلة اللمم في الصغر، وهذا يعني صغر الكبائر أمام رحمة الله وقدرته، وهذا صحيح إلا أن الآية استثنت اللمم من الكبائر على أساس أن اللمم صغار الذنوب التي يقع فيها المسلم وبذلك فإن رحمة الله في الاستغفار منها يمحوها؛ وأما الكبائر والفواحش فإن المسلم محاسب عليها ورحمة الله تتجلى في الإقلاع التام بالتوبة النصوح.

وبعد هذا التطواف في مظان القرآن الكريم يتبين أن التناص القرآني أكسب قصيدة البردة رونقا جماليا وفنيا وذلك بالاسترفاد في أبياتها من خلال الجزئيات والفنيات البنائية الجديدة، حيث تلاحقت الأفكار داخل القصيدة من خلال توظيف **التناص** القرآني، مما ساعد على آليات التجديد حيث التحول من المعنى ثم الارتداد إليه مرة ثانية.

ونلحظ أن الألفاظ والتراكيب القرآنية بدت في نص البردة متجاورة طورا ، ومعطوفا بعضها على بعض طورا آخر، ومهما يكن من ذلك، فإن هذا الأثر من القرآن العظيم قد طبع أفكار الإمام البوصيري ومشاعره بطوابع الصدق والوضوح والموضوعية والإنسانية، كما زاد أسلوبه من خلال ما رصع به جبين صنعته من بيانه المعجز، فصاحة وبيانا، إشراقا وقدسية، وذلك لما يتميز به بيان الخطاب القرآني الكريم من قدرة فذة على الإيحاء بالمعنى المراد من خلال ما يفيض به من صدق القول، وبلاغة الأسلوب، وعذوبة الإيقاع، وسحر البيان.

ثانياً . الحديث النبوي الشريف :

يشكل الحديث الشريف مادة غنية للشعر في العصر المملوكي، ولا سيما ما ارتبط منه بالمديح النبوي، أو بالتصوف. وقد شكل الحديث الشريف عند البوصيري في بردته مرجعاً ثقافياً أساسياً، تداخل مع النصوص الشعرية في علاقة تناصية خلاقة في بعض المواقع واجترارية، كما في بعض مواقع السرد، أو ما يسمى في البلاغة العربية بـ "العقد" أي نظم المنثور. ومن ذلك تلك الصور التي تبينها الأمثلة الآتية:

ومن النماذج التي يتجلى فيها التناص مع الحديث النبوي الشريف:

قوله: ظَلَمْتُ سُنَّةَ مَن أحيَا الظَّلامَ إلى أن اشتكَتْ قَدَمَاهُ الضُّرَّ مِنْ وَرَمِ

[1]. انظر: م، ن، 123/27.

[2]. انظر: م، ن، ص، ن.

يتناص مع نص الحديث: **عن أنس، قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تَورمَّت قدماه، أو قال ساقاه، فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً ".** [1]

تعمل إشارات التناص في نص البردة من نص الحديث كما يلي:

أحيا الظلام إشارة إلى " ليقوم ليصلي "

البردة الحديث

اشتكت قدماه الضر من ورم تشير إلى " ترم قدماه أو ساقاه"فـ أحيا الظلام← "أقام الليل"

نستخلص من نص الحديث أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقوم الليل عبادة لله، ولقاء نعم كثيرة حباه الله سبحانه وتعالى بها فأمام هذه النعم لا يملك إلا الشكر الذي يظهر من خلال العبادة، والتفاني في أدائها؛ دون النظر فيما يصبه في سبيل ذلك، لهذا قال : " أفلا أكون عبداً شكوراً " فنعم الله سبحانه وتعالى قليل في حقها ما ينال الإنسان من أذى أو ألم.

يوظف نص البردة مضمون الحديث في مدح الرسول والإشادة به، ويرى الشاعر نفسه ظالماً حين لم يقتد بالرسول صلى الله عليه وسلم، ففي نص الحديث نلمس فقه الصحابة مما أصاب النبي صلى الله عليه وسلم من أثر العبادة وطول القيام في←(فيقال له)ونلمس شدة إيمان الرسول صلى الله عليه وسلم برسالته وكونه قدوة للناس في قوله:←(أفلا أكون عبداً شكوراً).

خالف نص البردة المعنى الوارد في نص الحديث حين جعل قدمي الرسول صلى الله عليه وسلم تشتكيان مما أصابهما من ألم وورم، وهنا نلاحظ خفوت المعنى في نص البردة ونزوله عن نص الحديث، فنص الحديث بيَّن أن الرسول صلى الله عليه وسلم متفان في عبادة ربه غير آبه بما يناله في سبيله، بينما جعل نص البردة قدمي الرسول صلى الله عليه وسلم تشتكيان من قيامه الليل.

قوله:مُحمدٌ سيِّدُ الكونين والثَّقليـ نِ والفريقين من عُربٍ ومِن عَجَمِ

يتناص مع قول الرسول صلى الله عليه وسلم: " **أنا سَيِّدُ ولدِ آدم يومَ القيامةِ، وأول مَن يَنشق عنه القبْرُ، وأول شافعٍ وأولُ مُشفَّعٍ** ". [2]

حدث التداخل النصي عن طريق إطلاق لفظ سيد في نص البردة، فقوله: محمدٌ سيِّدُ ... الفريقين من عُرب ومن عجم إشارة إلى (أنا سيد ولد آدم ...)

---

[1] ـ صحيح البخاري، لأبي عبد الله بن إسماعيل البخاري، دار إحياء التراث، د.ط، 1313هـ، 63/2.

[2] ـ صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري، تح: فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1972م، 1782/4.

فنص الحديث حدد سيدُ بعدة أمور منها:

فـ سيِّد ولدِ آدم يوم القيامة ←جنس البشر

↖ العرب

و (ولد آدم) يمثل ↖ العجم

بالإضافة إلى أنه صلى الله عليه وسلم سيدُ ولدِ آدم يوم القيامة

فهو ←أول من ينشق عنه القبر.وهو← أول شافع.وهو ←أول مشفع.

وفي نص البردة تعمل دلالة سيد في إطار يتميز بالانفتاح والتوسع؛ فمحمد صلى الله عليه وسلم سيد للعديد من الأمور:

↖الدنيا

سيد الكونين

↖ الآخرة

سيد الثقلين ↖الأنس

↖الجن

سيد الفريقين↖العرب

↖العجمْ

مما سبق نستطيع القول: إن نص الحديث تميز بالتخصيص بينما نص البردة اتسم بالتعميم والشمول.

وقوله : كَم أَبْرَت وصِباً باللّمسِ رَاحَتهُ وأطْلَقَتْ أَرِباً من رِبقَةِ اللّمم

يتناص مع الحديث: **أن امرأة جاءت النبي صلى الله عليه وسلم بابن لها فقالت: إن ابني هذا به جنون يأخذه عند غدائنا وعشائنا فيخبث علينا فمسح النبي صلى الله عليه وسلم صدره ودعا فتعتعة يعني سعل فخرج من جوفه مثل الجرو الأسود".** [1]

حدث التعالق بين النصين عبر إشارات يستدعيها النص فقوله: كم أبرأت وصباً باللمس راحته إشارة إلى:

" فمسح النبي صلى الله عليه وسلم صدره ودعا "

وقوله: وأطلقت أرباً من ربقة اللمم إشارة إلى " إن ابني به جنون ... فمسح النبي صلى الله عليه وسلم صدره ودعا فتعتعة يعني سعل فخرج من جوفه مثل الجرو الأسود".

[1] ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1987م، 268/1.

اعتمد نص البردة في استدعائه لنص الحديث على الاختصار في أخذ المضمون وتوظيف ما جاء الحديث للإشادة بمعجزاته صلى الله عليه وسلم، والتدليل على قدرته في شفاء المرضى، ومن هنا يتمثل نص البردة نص الحديث تمثلاً كاملاً، فكلا النصين يشيران إلى المرض الجسدي والنفسي.

قوله: حتى غدتْ ملّةُ الإسلام وهي بهم من بَعدِ غُربتِها مَوصولَةَ الرَّحمِ

يتناص مع قول الرسول صلى الله عليه وسلم:" **بدأ الإسلام غَريباً وسَيعودُ غريباً ، فَطُوبَى للغُرَباءِ** ".[1] تم التعالق على المستوى اللفظي بين البردة ونص الحديث من خلال توظيف لفظ (الغربة)،فـغُربَتِها إشارة إلى"غريباً "، ويعمل مضمون الحديث دوراً بارزاً في نص البردة حيث وظف القسم الأول لنص الحديث

القسم الأول←(بدأ الإسلام غريباً) ← البداية.

القسم الثاني ←(سيعود غريباً)← النهاية.

الخاتمة تتمثل ← الجزاء يشير إلى (طوبى للغرباء) ←الجامع بين البداية والنهاية.

فقوله:حتى غدت ملة الإسلام وهي بهم ...من بعد غربتها...إشارة إلى القسم الأول(بدأ الإسلام غريباً)

فنص الحديث لم يحدد نوع الغربة وتركها عامة مفتوحـــــة؛ إلا أن نص البردة حاول تحديد إطار الغربة في:

حتى غدتْ ملّةُ الإسلام وهي بهم من بَعدِ غُربتِها مَوصولَةَ الرَّحمِ

فالبيت إشارة إلى الغربة الاجتماعية.

يتضح لنا من خلال استعراض أمثلة تناص البردة مع القرآن والحديث النبوي أن الثقافة الدينية كان حضورها طاغ في النص وهي مع مثيلاتها من نصوص البردة دللت لنا على أن البوصيري متواصل مع القرآن والأحاديث النبوية الشريفة، وتشكل جزءاً مهماً في ثقافته، كما اتضح لنا أن التناص الديني لم يتجاوز حدود التكرار للمضامين والألفاظ وانعدمت المخالفة والمغايرة لقوة النص الديني وبلاغته وقدسيته، والمغايرة التي رافقت بعض الأحاديث أدت إلى تراجع وخفة مضمون النص من حيث المستوى التعبيري والبلاغي.

ثالثا التناص التاريخي:

شكلت السيرة النبوية أهم المكونات البنيوية في المدائح النبوية. فشعراء المديح يستعرضون قبسات من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ويسردون شذرات من معجزاته ومواقفه الخالدة التي تميزت بها حياته قبل البعثة وبعدها. فتتحول مدائحهم إلى مسرد للأخبار والأحداث، تعج بالموروث النبوي، مما يعطيها أكثر من وظيفة، ويجعلها تؤدي أكثر من دور.

[1] ـ صحيح مسلم، 130/1.

والحقيقة إن العودة إلى التاريخ هو استدعاء مقصود للذاكرة التي تمثل النموذج. فلم يكن الشاعر يقصد التاريخ والسرد الإخباري للأحداث والمواقف، بقدر ما كان يعرض الماضي على الحاضر، ويستحضر حياة النموذج وسيرته لاستعادة التوازن إلى النفس واليقين إلى القلب. ففي الفترات التي يفقد فيها الإنسان القدوة الصالحة، وتقذف به الحياة في دوامة الحيرة والانتظار، بحثا عن المخلص والمنقذ، فحينئذ يحتمي الناس بالسيرة النبوية، ويدغدغون مشاعرهم بذكر المنقذ النموذج الذي لم يأت الزمان بمثله. يحنون إلى تاريخه وحياته المليئة بالأنوار والأسرار، يحلقون بخيالهم، فيعيشون حياة وهمية افتراضية مع جمال الرسول وكماله وأفعاله. هكذا يستطيع هذا الاسترجاع للزمن الماضي أن يمحو عن الإنسان جزءا من الكآبة، وينسيه بعضا من معاناته وصراعاته. يستطيع الزمن النبوي أن يعيد الطمأنينة إلى النفس المتمزقة، وإلى القلوب المكلومة التي تحمل آثار الواقع وأعباء الحياة؛ لأن الانبهار بشخصية الرسول والتعلق بأهدابه والتبرك بذكر سيرته العطرة، دواء نفسي فاعل وعلاج روحي يعيد التوازن إلى الذات، ويرد الثقة إليها.

يقدم النص سيرة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ بوصفها مرتكزاً أساسياً في تاريخ الأمة الإسلامية، ولحظة تحول في تاريخ البشرية، ومنها يمثل التاريخ المختزنة لكل الأحداث فيستدعي النص أحداثاً سبقت ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم ـ وأحداثاً رافقت الميلاد، وأخرى سجلتها دعوته وتزامنت بها؛ وبناء على ما سبق تم تقسيم التناص التاريخي إلى قسمين: تناص ما قبل البعثة، وتناص ما بعدها وسنتناولهما من خلال نماذج توضيحية.

أولا ـ تناص ما قبل البعثة:

1. **حدث هدم الكعبة:**

قوله: حتىَّ غَدَا عَن طَرِيقِ الوَحْيِ مُنْهَزِمٌ مِــنَ الشَّيَــاطِيْنِ يَــقْفُو إثْــرَ مُنْهَزِمِ
كَــأنَّهُم هَــرَبَــاً أبَــطَــالُ أبْــرَهَــةٍ أو عَسْكَرٌ بالحَصَى مِن رَاحَتَيْه رُمِى

يتناص هذان البيتان مع قول ابن هشام: " **فلمَّا أصبح أبرهة تهيَّأ لدخول مكة، وهيَّأ فيله وعبىّ جيشه... وضربوا الفيل ليقوم فأبَى ... فوجّهوه راجعاً إلى اليمن، فقام يُهرول، ووجَّهوه إلى مكة فبرك؛ فأرسل الله تعالى عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف ... مع كل طائر منها ثلاثة أحجار... لا تُصيب منهم أحد إلا هلك، وليس كلهم أصابت، وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذي جاءوا منه**".[1]

يستحضر نص البردة من نص السيرة إشارات تدل على الحدث.

فــ أبطال أبرهة إشارة إلى " فلمَّا أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة، وهيأ فِيله وعبَّى جيشه"

فــ كأنهم هرباً أبطال أبطال أبرهة إشارة إلى " وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذي منه جاءوا..."

[1]. السيرة النبوية لابن هشام : مصطفى السقا وصاحبيه، دار المغني، الرياض، ودار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ط1، 1999م، 1/76، 77.

فقوله: مُنهزمٌ، من الشياطين يقفا إثر مُنهزم وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذي جاءوا منه "

يوظف نص البردة من الحدث التاريخي الجزء المتمثل في اندحار وفرار جيش أبرهة من الطير للدلالة على انهزام الشياطين في السماء، ومنعهم من استراق السمع ورجمهم بالشهب.سكت نص البردة عن سبب رجم الشياطين والكيفية التي تم بها الرجم " الأداة "، وكذلك سكت في استدعاء حدث انهزام أبرهة عن ذكر الفيل ولم يذكر الطير و لا ما انتبهوا إليه من هلاك وهنا يظهر دور المتلقي في تكملة الحدث والبحث عن النهاية.

2. **حدث تضليل الغمامة للرسول صلى الله عليه وسلم.**

وقوله: مثلَ الغَمَامةِ أنَّى سار سَائرة تقيه حرَّ وَطيْسٍ للهَجيرِ حَمِى

يتناص مع ما جاء في السيرة من " أن أبا طالب خرج في ركب تاجراً إلى الشام، فلما تهيأ للرحيل... صبَّ به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ،... فرقَّ له ... فخرج به معه فلما نزل الركب بُصرى من أرض الشام، وبها راهب يقال له: بحيرى في صومعة له ...فلما نزلوا به قريباً من صومعته... رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وهو في صومعته...الركب حين أقبلوا، غمامة تُضله من بين القوم، قال: ثم أقبلوا فنزلوا في ظل شجرة قريباً منه. فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة، وتهصَّرت أغصان الشجرة على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى استظل تحتها، فلما رأى ذلك بحيرى نزل من صومعته، ثم أرسل إليهم، فقال: إني قد صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش... فقال له رجل منهم، والله يا بحيرى إن لك شأناً اليوم ...". [1]

تظهر إشارة التعالق في توظيف نص البردة لحدث تظليل الغمامة للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من نص البردة، فالبيت كله إشارة إلى " رأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم .... في الركب حين أقبلوا، وغمامة تُظله من بين القوم... ثم أقبلوا فنزلوا في ظل شجرة... فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة، وتهصَّرت أغصان الشجرة على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى استظل تحتها ...". [2]

سكت نص البردة عن تحديد وقت تظليل الغمامة، بينما أوضح نص البردة الغاية من تظليل الغمامة للنبي ـ صلى الله عليه وسلم في قوله:

مثلَ الغَمَامةِ أنَّى سار سَائرة تقيه حرَّ وَطيْسٍ للهَجيرِ حَمِى

وسكت نص البردة عن عدة أمور منها: ذكرا لراهب بحيرى، وعن خروج الرسول ـ صلى الله عليه وسلم مع عمه، والشجرة التي تصهرت لتظله عليه الصلاة والسلام، ومن هنا يبرز دور المتلقي مشاركاً لإكمال صورة الحدث الذي لم يذكره النص.

---

[1] السيرة النبوية، لابن هشام، 1// 199، 200.

[2] .م، ن، 1//184، 185.

3 . حدث شق بطن الرسول صلى الله عليه وسلم:

فقوله: أقسمتُ بالقمرِ المُنشقِّ إن له من قلبهِ نِسبةً مَبرورةَ القسمِ

يتناص مع السيرة في " وكان يشبّ شباباً لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جَفراً ، قالت: فقدمنا به على أمه ونحن أحرصُ شيء على مُكثه فينا، لما كنا نرى من بركته، فكلمنا أمه وقلت لها: لو تركت بُني عندي... قالت: فلم نزل بها حتى ردّته معنا، إذ أتانا أخوه فقال لي ولأبيه : ذلك الفتى القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه، فشقا بطنه،... قالت: فخرجت أنا وأبوه نحوه، فوجدناه قائماً مُنتقعاً وجهه...فقلنا له: مالك يابني، قال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاني وشقا بطني، فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ما هو...". [1]

يظهر التعالق في نص البردة في قوله: إن له، من قلبهِ نِسبةً مَبرورةَ القسمِ إشارة إلى " جاءني رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاني وشقا بطني، فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ما هو".

يوظف نص البردة حادثة شق البطن للإشادة بالمعجزات التي رافقت طفولة النبي صلى الله عليه وسلم. وتظهر المخالفة في أن نص البردة يشير إلى أن الشق كان للقلب في قوله: إن له من قلبه نسبة مبرورة القسم، بينما نص السيرة يشير إلى أن الشق كان للبطن.

ثانياً / تناص ما بعد البعثة:

1- حدث الإسراء والمعراج.

أ- حدث الإسراء:

فقوله: سَريتَ مَن حرمٍ ليلاً إلى حرم كما سرى البدرُ في دَاجٍ من الظُلمِ

يتناص مع ما جاء في السيرة " أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وهو بيت المقدس من إيليا "؛ [2]ففي نص السيرة ثمَّ تحديد الإطار الزمني ضمنياً فلفظ أسرى دلَّ على تحديد الزمن أي ليلاً لأن الإسراء لا يكون إلا في الليل، وحُدد الإطار المكاني في من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وهو بيت المقدس من إيليا، كما حدد النص التاريخي الوسيلة التي سار بها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الأقصى المسماة البراق، وهي دابة كانت تحمل عليه الأنبياء قبله. [3]

وظف نص البردة حدث الإسراء الوارد في السيرة في قوله: سَريتَ مَن حرمٍ ليلاً إلى حرم إشارة إلى " أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى..."، وحدد الإطار

---

[1] م، ن، ،ص، ن .

[2] . السيرة النبوية، لابن هشام، 401/2

[3] . م، ن، 2/ 402.

الزماني والمكاني في سريت من حرم ليلاً إلى حرم...، وجاء التحديد في الشطر الأول من البيت مما أعطى دلالة على الإيجاز والاختصار.

ب ـ حدث المعراج

في قوله: وما حوى الغار مِن خَيرٍ ومن كَرَم وكُـلُّ طَـرفٍ مـن الكُفّـَر عنـه عَمِى
فَالّصدق في الغارِ والصِّديقُ لم يَرما هجرة وهم يقولون ما بالغار من أرم
ظَنُّوا الحَمَام وظَّنوا العنكبوت على خيـر البريّـَةِ لـم تنسج ولـم تَحُـم
وِقـايـةُ اللّه أغنـت عـن مضاعفةٍ مـن الـدُّروعِ وعـن عَـالٍ مـن الأطُـمِ

يتناص مع السيرة في أنه "**عندما أذن اللّه سبحانه لرسوله صلى اللّه عليه وسلم بالهجرة ذهب إلى أبي بكر يبشره ويقره على الصحبة، فخرجا من بيت أبي بكر رضي اللّه عنه إلى غار ثور وكان عبد اللّه بن أبي بكر يتسمع لهما ما يقول الناس في النهار، ويأتيهما بالأخبار في السماء، وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما بالطعام، وأقام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وصاحبه في غار ثور ثلاثة أيام جعلت قريش لمن يرد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إليها مائة ناقة، وبعد ثلاثة أيام غادر الرسول صلى اللّه عليه وسلم وصاحبه إلى المدينة بصحبه عامر بن فُهيرة مولى أبي بكر وعبد اللّه بن أرقط دليلهما، وخرج في أثرهم سراقة بن جُعتم ليردهم إلى قريش لقاء عرضهما إلا أنه لم يُفلح إذ عثر به فرسه وذهبت قدماه في الأرض وعندما انتزعهما تبعهما دخان كالإعصار...**".[1]

وظّف نصّ البردة الحدث بالاعتماد على بعض الألفاظ والمضامين، فقوله:

الغار← إشارة إلى غار ثور.

وما حوى الغار← إشارة إلى الرسول صلى اللّه عليه وسلم وصاحبه أبي بكر رضي اللّه عنه.

من خير ← إشارة إلى الرسول صلى اللّه عليه وسلم.

ومن كرم ←إشارة إلى أبي بكر رضي اللّه عنه.

وخص بالكرم ←لأنه آثر الرسول صلى اللّه عليه وسلم بنفسه وماله.

والصدق ←إشارة إلى الرسول صلى اللّه عليه وسلم.

والصديق ←إشارة إلى أبي بكر الصديق رضي اللّه عنه.

وهم يقولون ما بالغار من أرم ←إشارة إلى تعقب كفار قريش للرسول صلى اللّه عليه وسلم وصاحبه وقولهم عندما وصلوا إلى غار ليس به أحد وكيف عمى اللّه سبحانه وتعالى أبصارهم وإرساله لحمامة أقامت على فتحة الغار، وعنكبوت نسجت بيتها عليه.

فوقاية اللّه← تشير إلى حماية اللّه لنبيه صلى اللّه عليه وسلم وصاحبه.

والحماية ←تشير إلى عمى أبصار الكفار، ووجود الحمامة وعشها ونسج العنكبوت.

[1] م، ن، 2/ 482 - 487.

اعتمد نص البردة في استدعائه لحدث السيرة على المخالفة التاريخية؛ فنص السيرة لم يذكر تعقب الكفار للرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه رضي الله عنه، ولم يذكر تعقب الكفار للرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه رضي الله عنه، ولم يذكر الحمامة التي بنت عشها على فتحة الغار ولا العنكبوت التي نسجت بيتها.

يتضح لنا من خلال النماذج السابقة أن التناص التاريخي أخذ حيزاً كبيراً من فضاء النص، ومثل بؤرة يصعب فصلها نتيجة للدور الحيوي الذي داخل البنية المضمونية للنص، كما يتبين أن البوصيري وظف حُسن سبك أحداث السيرة؛ لكي يستشعر الحدث ويستحضره، وأخيراً اعتمدت عملية إعادة إنتاج النص على المخالفة والمغايرة التاريخية في استدعاء الحدث.

المبحث الثالث / التناص الأدبي:

يمثل التناص الأدبي فضاء يمتد إلى عصور مختلفة، و يغوص في مناح متعددة الاتجاهات، ويفتح على آفاق وأبعاد يصعب الإمساك بها والسيطرة عليها ويعد مورداً زاخراً بالكثير، فهو يشمل التناص الشعري، والتناص النثري، إلا أن نيس أكتفي هنا بالتناص الشعري.

يعدّ الخطاب الشعري بشكل عام المرجع الثقافي الرئيسي بعد الخطاب الديني الذي يشكل قصيدة الشاعر في العصر المملوكي، وذلك بطرق شتى، تبدأ بالمعارضة الشعرية وتنتهي بتكرار الصفات والصيغ الجاهزة والصور مروراً بالإيداع والتخميس وغيره من القضايا البلاغية. ويمكن قراءة التناص مع الخطاب الشعري في نص البردة من خلال محورين: الأول التناص الجزئي والتناص الكلي.

أ ـ التناص الجزئي:

تُحقّق بعض الأبيات حضوراً في الذاكرة الشعرية بسبب طاقتها التصويرية، أو بسبب نكتة بلاغية جعلت البيت الشعري يتداول على ألسنة الناس، وهذا يدفع الشعراء الآخرين لاقتفاء أثر تلك الأبيات، مركّزين على العنصر الذي حقّق لها الذيوع وأعطاها الحضور، لصياغتها على طريقة الأمثال والحكم، وما لذلك من دور في حفظها، وبخاصة إذا كانت ذات إيقاع طاغ، إن تلك السمة تُدخل الأبيات في دائرة التعالقات النصية، لأنها تصبح جزءاً من الرصيد الشعري المميز. وهذا ما يدفع الشعراء اللاحقين إلى التناص معها طلباً للذيوع الذي حققته، أو رغبة في محاكاتها، أو تثبيتاً لدلالتها وحضورها الشعري.وسأقف عند النماذج التي يُمثلها هذا الجزء من التناص.

ففوله : والنَّفسُ كالطفلِ إن تُهملهُ شبَّ على حبِّ الرَّضاع وإن تفطمهُ يَنفَطِمِ

يتناص مع قول أبي ذؤيب الهُذلي (ت 27 هـ):

والنفسُ راغبةٌ إذا رَغَّبتها وإذا تُردّ إلى قليلٍ تَقنعُ [1]

يتم التعالق النصي عن طريق إطلاق إشارة لفظ النفس ويعمل مضمون الناعة دوراً بارزاً في كلا النصين.

والنفس كالطفل← إشارة إلى والنفس راغبة

إن تهمله شبَّ على حبِّ الرَّضاع ←إشارة إلى والنفس راغبة

وإن تفطمه ينفطم ←وإذا تُرد إلى قليل تقنع

فكلا النصين يركزان على تربية النفس فقول الشاعر:

والنفسُ راغبةٌ ←تشير إلى الزيادة و اللامحدود في رغبات النفس.

وراغبةٌ تحمل دلالة ← الخير والشر والنافع والضار.

والنفس راغبة في النص قُيدت ←بـ إذا رغبتها

وإذا رغبتها تشير إلى← مسايرة الإنسان لنفسه وتركها على هواها.

ومن هنا جاء الشطر الثاني ليبين أن النفس خاضعة إلى الأسلوب التربوي الذي تقوم وتنشأ عليه.

وقوله: فإنه شمسُ فضلٍ هم كواكبُها يُظْهِرنَ أنوارَها للناس في الظلمِ

يتناص مع قول النابغة:

فإنك شمسٌ والملوكُ كواكبُ إذا طلعت لم يَبدُ منهن كوكب [2]

تتم عملية التناص في نص البردة عن طريق توظيف الألفاظ والمضمون، فقوله:

فإنه شمس فضل هم كواكبها ←إشارة إلى فإنك شمس والملوك كواكب

فـ شمس فضل ← يشير إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

هم كواكبها ←يشير إلى الأنبياء عليهم السلام.

فإنك شمس←يشير إلى النعمان ملك الحيرة.

والملوك كواكب ←يشير إلى غيره من الملوك.

ويظهر الاتفاق والاختلاف بين النصين من خلال عدة أمور منها: أن ممدوح البوصيري يختلف عن ممدوح النابغة، فالأول ← نبي أُرسل إلى أمة كل البشرية.والثاني ←ملك من ملوك العرب.

فقد اعتمد نص البردة على بعض الألفاظ مثل: ←الشمس والكواكب والظهور، إلا أنه استخدمها بصورة مغايرة ترجع لاختلاف مقام المدح فقد استخدم البوصيري الهاء المتضمنة معنى الغياب للإشارة إلى ممدوحه؛ مما أعطى دلالة على أن ممدوح البوصيري لم يكن حاضراً زمانياً

[1]- ديوان أبو ذؤيب الهذلي، تحقيق، كرم البستاني، دار صادر، بيروت، ص54.

[2]- ديوان النابغة الذبياني، تحقيق، كرم البستاني، دار صادر بيروت، ص18.

ومكانياً؛ وإنما روحياً، كما ناسب البوصيري بين الهاء في فإنه الدال على الرسول صلى الله عليه وسلم، وضمير الفصل ←في " هم " الدال على الرسول عليهم السلام، وكل ما سبق يغاير مقصد النابغة في نصه الذي ناسب بين كاف الخطاب ← في " إنك " الدال على الملك النعمان بن المنذر والاسم الظاهر ـــ في "والملوك " وهذه المغايرة في الاستخدام بين النصيَّن لها ما يبررها؛ فالوجود الروحي للممدوح يفرض نسه على البوصيري ومن ثم على النص خلافاً لنص النابغة الذي يفرض الوجود الزماني والمكاني للممدوح سيطرته على النابغة ومن ثم النص.

وفي توظيف مفهوم الشمس والكواكب اعتمد النابغة على المفهوم الظاهري للشمس والكواكب فجعل ظهور ممدوحه سبباً لاختفاء المملوك مثلما ظهور الشمس سبباً لاختفاء الكواكب، غاير نص البردة هذا المفهوم عندما غاص إلى مفهوم أعمق، وأوجد علاقة تواصل واستمرار بين الشمس والكواكب؛ فمفهوم النابغة قاده إلى الرفع من الممدوح والحط من الملوك لأن الشمس تمثل النهار الذي يمثل القوة؛ أما الكواكب فتمثل الليل الذي يمثل الخوف والرهبة. بينما ركز نص البردة على الإنارة الصادرة من الشمس والكواكب إشارة الرسول والأنبياء عليهم السلام، فكليهما مصدر لهداية الناس ومن ثم إخراجهم من الظلمات إلى النور: الكفر الإيمان .

وتمثل الشمس في كلا النصين ←القوة والتفوق لأنها اقترنت بالممدوح، ولذلك وردت الشمس بصيغة الإفراد، والكواكب بصيغة الجمع فالشمس واحدة والكواكب، وهذا بدوره يفسر السر الكامن وراء تقديم الشمس على الكواكب؛ فالشمس تجذب الكواكب للدوران حولها، كما أن نورها كامن فيها نابع منها خلاف للكواكب التي تستمد نورها من الشمس. والشمس نورها مستمر ودائم عكس الكواكب وهذا ينطبق على رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم التي اتسمت بالثبات والاستمرارية حين لم تقترن بزمان ومكان وأنها جاءت متممة لما تقدمها من رسائل سماوية، كما أن الرسائل السماوية السابقة متصلة بها وممهدة لها وهذا يؤكده قول البوصيري:

وكلُّ آى أتى الرسل الكرام بها فإنما اتصلت من نوره بهم

ب ـ التناص الكلي:

يتناص هذا الجزء من التناص على توظيف نصاً كاملا في بناء النص اللاحق " الجديد"، المتمثل في نص الصرصري (ت 656 هـ) [1]، بوصفه مرتكزاً أساسياً لنص البردة.

[1] ـ هو: يحيى بن يوسف بن يحيى بن منصور الأنصاري الصرصري الزرياني، اشتهر بالصرصري، نسبة إلى صرصر، وهي قبيلة بجوار بغداد، انظر ترجمة الصرصري في: الذيل على طبقات الحنابلة، لابن رجب الحنبلي،تحقيق، محمد حامد الفقي، ط1، مكتبة السنة المحمدية، القاهرة، مصر، 1952م، 262/2.

يلتقي النصان في أنهما يتناولان مدح النبي صلى الله عليه وسلم، ويوظف نص البردة مضمون نص الصرصري مع الاختلاف والمفارقة والإضافة، ويوظف نص البردة العديد من المعاني في نص الصرصري، سأتناول بعض النماذج: [1]

فقوله: وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من لولاه لم تُخرج الدنيا من العدم

يتناص مع نص الصرصري في قوله:

آتاهم وهم بُور فأخرجهـــم إلى وجود الهدى من حفرة العدم

نجد في نص الصرصري أن وجود الرسول صلى الله عليه وسلم أخرج الناس من ظلام الكفر والجهل إلى نور الإيمان والمعرفة، فالعدم يشير إلى← الكفر والوجود يشير إلى← الإيمان والمعرفة.

يوظف نص البردة مضمون بيت الصرصري فقوله:

لولاه لم تخرج الدنيا من العدم إشارة إلى: آتاهم وهم بور فأخرجهم إلى وجود الهدى من حفرة العدم

البردة الصرصري

وقوله: محمدٌ سيدُ الكونين والثقليـــ ن والفريقين من عرب ومن عجم

يتناص مع نص الصرصري في قوله:

تلك الرُّبُوع المُنِيراتُ التي شرُفت بسيدِ العربِ العَرباء والعَجم.

تظهر إشارات التعالق في أن البيت إشارة إلى سيد العرب العرباء والعجم

حدد نص الصرصري سيادة الرسول صلى الله عليه وسلم للعرب والعجم، وجعل نص البردة سيادة الرسول صلى الله عليه وسلم، للكونين والثقلين من عرب وعجم، ومنا نلاحظ شمولية وتوسع المعنى وافق دلالته في نص البردة.

وقوله: وهو الشفيع الذي تُرجى شفاعته لكل هول من الأهوال مُقتحم

يتناص مع قول الصرصري:

وهو الشفيع الذي تُنجي شفاعته عُصاةَ أمته من جاحمٍ ضرم.

يحدث التعالق من خلال توظيف نص البردة لمضمون ألفاظ نص الصرصري فقوله:

هو الحبيب الذي تُرجى شفاعته إشارة:وهو الشفيع الذي تُنجي شفاعته

نص البردة نص الصرصري

ولكل هول من الأهوال مقتحم إشارة إلى: عُصاةَ أمته من جاحم ضرم

نص البردة نص الصرصري

فـــ هو الحبيب = وهو الشفيع

[1]. اعتمدت في إثبات أبيات الصرصري على ديوان الصرصري، تحقيق: د. مخيمر صالح دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان، والدار العربية، عمان، الأردن، ط1.

والذي تُرجى شفاعته = والذي تنجي شفاعته

إلا أن هو الشفيع أفادت أنه صاحب الشفاعة لأمته يوم القيامة. نص الصرصري

بينما هو الحبيب أفادت أنه حبيب لله سبحانه وتعالى وحبيب لأمته. نص البردة

ومن هنا فإن عبارة تنجي شفاعته في نص الصرصري أفادت معنى النجاة بالشفاعة من النار، بدليل قوله في الشطر الثاني عصاة أمته من جاحم ضرم أي نار جهنم في الآخرة، بينما عبارة ترجى شفاعته في نص البردة أفادت معنى النجاة بالشفاعة في الدنيا والآخرة والدليل قوله في الشطر الثاني:

لكل هول من الأهوال مقتحم في الدنيا والآخرة.

وقوله: وأئذن لسحب صلاةٍ منك دائمة على النبي بمنهل ومنسجم

يتناص مع قول الصرصري:

صلى عليك صلاة لا انقطاع لها مولاك ثم على صحب وذي رحم.

يوظف نص البردة مضمون نص الصرصري بالحصر والتخصيص فقوله:

وائذن لسحب صلاة منك دائمة صلى عليك صلاة لا انقطاع لها

خصص نص البردة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فيه ولم يتجاوز إلى غيره، وجعل الصلاة عليه مثل السحب المحملة بالماء مصدراً للخير فكلاهما يحمل يحمل الرحمة، وجاء مضمون نص الصرصري دالا على شمولية الصلاة وعمومها فأضاف إلى النبي صلى الله عليه وسلم، صحبه رضوان الله عليهم وذوي الرحمة.

مظاهر التشابه والاختلاف بين نص البردة ونص الصرصري:

تظهر بنية التشابه بين النصين في وحدة المضمون المتمثلة في غرض مدح النبي صلى الله عليه وسلم ووحدة الوزن؛ فكلا النصين نظما على البحر البسيط المخبون، وقافية الميم المكسورة الحركة، ويحدث التشابه بين النصين في ذكرهما للأماكن الحجازية التي تذكر بالرسول صلى الله عليه وسلم،كما تظهر إشارات التشابه في استحضار نص البردة لأربع وخمسينا(54) قافية في نص الصرصري من ستين (60) بيتا يمثل عدد أبيات القصيدة، ومن هنا أستطيع القول: إن نص الصرصري يشكل حضوراً كبيراً في نص البردة فيتشابه النصان في أن كلاهما ختم بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم.

ويظهر الاختلاف بين النصين في عدد الأبيات حيث بلغ عدد أبيات نص البردة (160) بيتاً ونص الصرصري (60) بيتاً، كما نلاحظ الاختلاف في اعتماد نص البردة على تقسيم منطقي للأبيات حيث ظهر في عشرة أقسام (10)، بينما نص الصرصري لم يعتمد على تقسيم منطقي للأبيات، وفي أغلب الأحيان تتداخل موضاعاته فيما بينهما فيختلط المدح مع التوسل ومولده صلى الله عليه وسلم، وغيره.

رقم	القســـم	نص البوصيري	نص الصرصري
1	الغزل وشكوى الغرام	1ـ 12	1 ـ 17
2	التحذير من هوى النفس	13 ـ28	ـ
3	مدح النبي صلى الله عليه وسلم	29 ـ58	18 ـ43
4	مولده	59 ـ71	46 ـ50
5	معجزاته	72 ـ87	ـ
6	شرف القرآن	88 ـ 104	ـ
7	الإسراء والمعراج	105 ـ 117	ـ
8	جهاده	118 ـ139	ـ
9	التوسل	140 ـ 151	44 ـ45
10	عرض الحاجات	152 ـ160	54 ـ60
11	حديث عن الأولياء	ـــ	51 ـ53

ويختلف النصان في المقصدية من عرض الحاجات فجاءت المقصدية (الغاية) في نص البردة ذاتيه خاصة، بينما المقصدية في نص الصرصري جماعية عامة.

الخاتمة:

حاولت هذه الدراسة تتبع جماليات (التناص) بوصفه مصطلحاً يتقاطع في كثير من النّقاط مع مفاهيم ومصطلحات نقدية عربية قديمة من حيث التّعريف،والمنهج والآلية، وذلك من خلال استنطاق نص بردة البوصيري، وإعادة قراءتها قراءة جديدة في ضوء المفاهيم النقدية الحديثة بغية التعريف بعطاءات الثقافة العربية الإسلامية عند أبنائها أولاً والعمل على نقلها للآخر ثانياً. ففيها أصالتنا وتميزنا الذي على أساسه نخاطب الآخر ونحاوره.

ومن خلال عرض هذه الورقة يمكن القول:

- النصوص التي دخلت فضاء النص هي نصوص غير محددة وغير نهائية، ومن ثم فإن محاولة حصرها أو تتبعها محاولة مضنية، لذلك اتجهت الدراسة إلى عرض نماذج تمثيلية لهذه النصوص المتعالقة والداخلة في فضاء النص والكيفية التي دخلت بها، وعملية إعادة الإنتاج التي خضعت لها، ومن هنا عمد النص إلى آليات الاختصار والتكثيف والمخالفة والمغايرة.
- استوحى البوصيري مادته الإبداعية ورؤيته الإسلامية في بردته من القرآن الكريم أولا فالسنة النبوية الشريفة ثانيا، كما أن هناك مصدرا مهما في نسج قصيدة البردة يتمثل في كتب السيرة التي تتمثل في مجموعة من الوثائق والمصنفات التي كتبت حول سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، سواء أكانت قديمة أم حديثة وأذكر على سبيل المثال: "السيرة النبوية" لابن هشام.
- اختلفت عملية الإنتاج؛ ففي التناص الديني والقرآني منه انعدمت المغايرة والمخالفة لقوة النص القرآني وقدسيته فعمد في أغلب الأحيان إلى توظيف المضامين والألفاظ في الآيات كما هي، وفي الحديث النبوي الشريف اتجه النص إلى نوع بسيط من التصرف والمخالفة أدت إلى خفوت

المضمون وجعله أقل أدائية لارتفاع مستوى بلاغة نص الحديث، بينما في التناص التاريخي وظف الإثارة في سبك الأحداث لشد انتباه المتلقي؛ لكي يستشعر الحدث،النص في هيكله العام أخضعه البوصيري ـ كما في قصائد المديح النبوي ـ إلى بنية ثابتة تقريباً يتمحور فيها المديح حول سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم من مولده حتى وفاته، بما في ذلك شمائله وصفاته ونهج حياته الديني والدنيوي. وهو مديح تتحقق فيه السيرة النبوية على مستويين: فني يرتبط بالشعر كخطاب إبداعي، وسيكولوجي يرتبط بالوعي الاجتماعي في العصر المملوكي، وما يحيط به من معطيات اقتصادية واجتماعية وثقافية، وفي التناص الأدبي انطلقت آفاق الشاعر الإبداعية حيث تحرر من مرجعية صدق الحدث وقدسيته فتجاوز حدود الزمان والمكان ولعبت ثقافة الشاعر وتأخر عصره دوراً بارزاً في إضفاء الصبغة التجديدية على المضامين التي استدعاها، وتظهر عكسية العلاقة بين النصوص الداخلة ونص البردة فكلما اتجهت النصوص نحو التخصيص اتجه نص البردة نحو التعميم، وكلما اتجهت النصوص نحو التعميم اتجه نص البردة إلى التخصيص.

- يقوم نص البردة على بنية تعتمد التشابه ونجح نجاحاً باهراً في غرض المديح؛ إلا أنه لم يُوفق على مستوى القراءة والتلقي فتوجه النص إلى مدح النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتقسيمه إلى أقسام جعله يدور في فلك بؤرة مركزية لا يمكن الحياد عنها أو تجاهلها مما أدى انغلاق مجال النص المضموني وتأطيره في الرسول ـ صلى الله عليه وسلم، كما قدَّم حقائق علمية واقعية حدَّت من فتح مجال النص وآفاقه؛ ومن ثم قطع الطريق على أي آفاق أخرى مضمونية؛ كل ذلك أوجد صعوبات أمام المتلقي الذي أصبح محاصراً بمضمون النص وغير قادر على تأويله، فلو أُوِّل النص إلى غير الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنعدمت القيمة المضمونية للنص، ولكن كل ذلك لا يقلل من قيمة النص بدليل أنه لقى انتشاراً واسعاً بين المتلقين وتناص معه الشعراء في عصره وما بعده إلى عصرنا هذا.

وأخيراً لا يزعم البحث أنه قد أحاط بكل مظاهر التناص الخارجي التي يضج بها نص البردة، كالتناص مع الأماكن التاريخية والأحلام والرؤى الصوفية، وغيرها، وإنما لامس منها ما اقتضته الغاية المتوخاة منه من جهة، وما يكوِّن مدخلاً لدراسة ما تبقى من جهة ثانية، لعل الفرصة تسنح لتفحصه في مستقبل الأيام.

المصـــادر والمـراجـــع

[1]. القرآن الكريم.

[2]. الأدب في العصر المملوكي، د: محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط1، 1996م.

[3]. إنتاج الدلالة ـ قراءة في الشعر والقصص والمسرح ـ د: صلاح فضل، هيئة قصور الثقافة، مصر، ط1، 1993.

[4]. تجليات التناص في الشعر العربي،دراسة د.محمد عزام، مجلة التراث العربي،دمشق، 2001م.

[5]. تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ط4، 1984م.

[6]. تفسير الرازي، لفخر الدين الرازي، دار الفكر، ط1، 1981م

[7]. التناص الشعري، قراءة أخرى لقضية السرقات، مصطفى السعدني، منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ط، 1991م.

[8]. التناص في الخطاب النقدي والبلاغي، د.عبد القادر بقشي، دار افريقيا الشرق، المغرب، 2007م.

[9]. التناص في الشعر العربي الحديث ـ البرغوثي نموذجاً، حصة البادي، دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع و الاعلان، الأردن، 2008م.

[10]. التناصية بحث في انبثاق حقل مفهومي وانتشاره، مارك أنجينو، ترجمة محمد خير البقاعي، مجلة علامات،ج18،مارس 1996م.

[11]. الخطيئة والتكفير، عبد الله الغدامي، النادي الأدبي الثقافي، جدة،ط1، 1985م.

[12]. ديوان أبو ذؤيب الهذلي، تحقيق، كرم البستاني، دار صادر، بيروت.

[13]. ديوان البوصيري، شرح أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2001م.

[14]. ديوان الصرصري، تحقيق: د، مخيمر صالح ، دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان، والدار العربية، عمان، الأردن، ط1.

[15]. ديوان النابغة الذبياني، تحقيق، كرم البستاني، دار صادر بيروت.

[16]. الذيل على طبقات الحنابلة، لابن رجب الحنبلي،تحقيق، محمد حامد الفقي، ط1، مكتبة السنة المحمدية، القاهرة، مصر، 1952م.

[17]. السيرة النبوية لابن هشام تح: مصطفى السقا وصاحبيه، دار المغني، الرياض، ودار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ط1، 1999م.

[18]. صحيح البخاري، أبي عبد الله بن إسماعيل البخاري، دار إحياء التراث، د.ط، 1313م.

[19]. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري، تح: فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1972م.

[20]. علم النص، جوليا كريستيفا، ترجمة: مزيد الزاهي، دار تويفال، الدار البيضاء، ط1، 1991م.

[21]. فوات الوفيات، للكتبي، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، د، ط.

[22]. قطاع البطولة والنرجسية في الذات العربية، علي زيعور، بيروت، دار الطليعة، 1982م.

[23]. المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي، محمود سالم محمد، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ودار الفكر، دمشق، سورية، ط1، 1996م.

[24]. المدائح النبوية بين الصرصري والبوصيري، د، مخيمر صالح، ،دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان، والدار العربية، عمان، الأردن، ط1،

[25]. المدائح النبوية في الأدب العربي، زكي مبارك، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط2، الشركة الدولية للطباعة، القاهرة، مصر، 2003م.

[26]. مفهوم التناص في الخطاب النقدي الجديد، أنجينو مارك، ترجمة وتقديم، أحمد المديني، عيون المقالات، دار الشؤون الثقافية العامة، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1989م.

[27]. مقدمة ابن خلدون، لابن خلدون، تحقيق درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت، 1996م.

[28]. مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1987م.

[29]. نظرية التناص ـ صك جديد لعملة قديمة ـ، د. حسين جمعة، مجلة مجمع اللغة العربية، المجلد 57 الجزء (2).

[30]. نهج البردة، أحمد شوقي، شرح سليم البشري، مكتبة الآداب، د.ط، القاهرة، 1999م.